فكر

مئوية باكثير: إرهاصات التجديد الشعري

د. حاتم الصكر*

مائة عام على ولادة علي أحمد باكثير، تمثل مناسبة للمهتمين بالتجديد في الكتابة الشعرية العربية، لتأمل دلالات محاولاته، التي اعترف بسبقها وريادتها بدر شاكر السياب نفسه، ذاكراً أن باكثير، وقبل عقد من محاولات السياب، دشّن الكتابة المعروفة لاحقاً بالشعر الحر أو الشعر المرسل المنطلق كما اقترح باكثير اسماً له.

كانت الذكرى المئوية للمولد – حسنٌ أن نتذكر مبدعينا مولودين لا موتى فحسب! – مناسبةً للبعض كي يسترجعوا خط سير حياة باكثير وتعرجاتها، من الهجرة شأن الحضارم القدامى، والعودة إلى الوطن، والهجرة الثانية بعد حادث درامي، توفيت فيه زوجته الشابة، وطوافه في الجزيرة العربية والساحل الأفريقي ، ثم استقراره في مصر، ودراسته الأدب الإنجليزي بجامعتها، واشتغاله في التعليم، ونشاطه الأدبي ونشر كتبه. وما تلاها من مواقفه الفكرية، التي اتسمت أخريات حياته بالمحافظة رغم أنها بدأت بالتجديد المبكر والريادي عبر ترجمة (روميو وجوليت) إلى العربية شعراً حراً، وتأليفه مسرحية (إخناتون ونفرتيتي) بالطريقة نفسها، ما سيكون لاحقاً مؤثراً فنياً يغري المجددين العرب بالكتابة الشعرية الحرة.

ولئن عُدّت محاولاته ريادة في الشعر الحر(التفعيلة) كما يرى الدكتور عبدالعزيز المقالح، ومبتدعاً له في رأي الدكتور عبدالرضا علي، وممهداً ومثيراً في رأي الكثيرين، فإن محاولاته تلك تظل في الجسد الشعري العربي، علامة على الحنين للتجديد والرغبة في التلاؤم مع العصر، وتكتمل دورة التجديد، تلك لدى باكثير، في تناوله لأكثر من جنس أدبي، فله تجارب ذات قيمة تاريخية وفنية، في القصة القصيرة والرواية التاريخية، وفي الترجمة، وفي كتابة المسرحية الأدبية، والملحمة، والدراسات، ولم يخفَ على دارسيه أثر تعليمه، فقد كانت إطلالته المبكرة على الأدب الأجنبي إحدى أهم المكونات الثقافية في حياته وتجربته، والتي ظل لها صدى متفاوت الحدّة حتى أواخر كتاباته الشعرية، ففي قصيدة له تحمل أصداء الهزيمة المذلة، في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وانخذال الحلم الوطني والقومي، كتبها قبل وفاته بعامين يقول:

أن تتلاشى بداً
أمتنا ..أو من جديد تولدَ
إما نكون أبداً
أو لا نكون أبداً
غداً وما أدنى غداً لو تعلمون
إما نكون أبداً أو لا نكون.

وقد جعل بذلك صرخة «هاملت» الشهيرة في مسرحية شكسبير، لازمة تنتهي عندها كل مقاطع القصيدة، التي وضع لها العنوان الهاملتي نفسه (إما نكون أو لا نكون؟) وهي مطولة كتبها في أجواء حزيران الحزين، ولم تنشر في ديوان شأن أشعاره، التي لم تظهر في ديوان طوال حياته، ولعل ذلك يمنح الدارسين فرصة تأمل الحضور الشعري في حياته الأدبية، التي اعترف هو نفسه، بأن الشعر غاب عنها أو غابت هي عنه زمناً، ولربما كان تشظّي اهتماماته، وراء ذلك الغياب الشعري ؛ فصعب أن يجمع كاتب بين مشاغل إبداعية عديدة: سرداً بأنواعه وشعراً وترجمة ودراسات وصحافة وعملاً يومياً.

وإذا كانت الدراسات الأدبية والنقدية، لم تتوقف عند أثر ثقافته ودراسته في محاولاته التجديدية؛ فيكفي اعتراف نازك والسياب بسبقه لهما، بتفاوت ينطوي على التصريح لدى السياب، والتلميح المتحفظ لدى نازك، وكذلك أحاديثه عن تميز تجربته في الشعر المرسل، المنطلق كما أسماه مقارنة بمحاولات محمد فريد أبو حديد والرواد الآخرين.

لم تكن حياة باكثير إلا ملحمة متنوعة الفصول كأدبه، فالهجرات المتتابعة والإقامات المتنوعة، منحته الشجاعة ليرتاد فنوناً أدبية متنوعة أيضاً، ويعكس وعيه بها لهفته لتطعيم الأدب بالجديد عليه من الفنون، دون أن يتخلى عن اعتقاده بالواجب القومي للمثقف، فهو ينادي في رواياته ومسرحياته رموزاً وأحداثاً من التاريخ العربي الإسلامي، ويظن أنه بذلك يخدم أمته ويوظف أدبه للدفاع عن هويتها، فيواصل إضاءة ما غمض من جوانب في التاريخ، متخذاً المحافظة منهجاً له، سيقربه كثيراً من العقاد في فاصلة حياته المصرية الأخيرة، تلهيه عن مواصلة مشروعه التجديدي، الذي بدأه مبكراً في الثلاثينيات.

ما عاش باكثير حياة يسيرة رخيّة، بل تخللتها الصعاب والشظف ،ولعل قصته القصيرة (الباذنجان والأدب) تعكس جانباً من ذلك، حيث يعرض الراوي للبيع كتبه الأدبية العزيزة لديه، منادياً عليها في السوق، فيختلط صوته بأصوات باعة الخضراوات، معلنين عن بضاعتهم، مغطين على نداءاته، وهو يبع كتبه أو (أفلاذ كبدي) كما يقول، معتذراً لها بأنه لم يجد دواء لابنته المريضة، ولا أحد يمكنه أن يستدين منه؛ «فأصحابه كلهم مثقفون» لا يملكون ما يساعد، فاضطر لبيع كتب جبران وطه حسين وغيرهما، وحين يصرخ بأسمائهم في السوق، متبوعاً بوصف «أدباء عظام.. عظام»، يرمقه رجل ذو كرش متسائلاً عن العظام، لأنه يريد أن يضعها تحت الطعام ليغدو أدسم! وآخر ينبهه إلى أنه يبيع بلا ميزان، فيعود خائباً وصوته يتلاشى، بينما يزمجر باعة الباذنجان مسيطرين على ساحة السوق.

تلك الشكوى الخفية المشفرة، ستكون ذات أثر في حزن باكثير، وصمته وعزلته، في عقود حياته الأخيرة خصوصاً.♦

* ناقد من العراق